

أغراض شعر المثقب العبدى

دراسة أدبية نقدية

د. محمد زروق الحسن علي*

المستخلص :

تناولت هذه الدراسة أغراض شعر المثقب العبدى ، وتكمن أهميتها في أن الأقدمون لم يتناولوا شعر هذا الشاعر بالدرس والتحليل إلا قليلاً من خلال ترجمتهم له ، و أما الدارسون المحدثون فقد ذكروه مترجمين له ، مكررين ما ذكره الأقدمون عنه ، ولم يتناولوا أغراضه بدراسة قائمة بذاتها ، بل اكتفى بعضهم بتعليقات عامة عن شعره في نذر يسير من مؤلفاتهم . وقد اتبع الباحث منهجاً وصفيّاً تحليلياً لتحقيق أهداف الدراسة والوصول إلى نتائجها . وأهم هذه النتائج التي توصل إليها الباحث أن أغراض شعر المثقب العبدى كانت أغراضاً تقليدية في المدح ، والوصف ، والفخر ، والغزل ، فقد جرى فيها على سنن القصيدة العربية التقليدية في كل خصائصها الأسلوبية اللغوية . كما تبين للباحث أن ثمة رابطاً بين شعر المثقب و شخصيته ولاسيما في رحلاته المستمرة بين البادية والحاضرة .

وأهم التوصيات التي أوردها الباحث أن يعنى الباحثون بدراسة شعراء ((نُكْرَة)) ، ومنهم شاعرنا هذا المثقب العبدى ، وكذلك الممزق العبدى ، و المفضل النكري ؛ لأن الدارسين قد أغفلوا هؤلاء الشعراء ؛ ففى دراستهم إبراز لشعر عبد الغيث عامة ونكرة خاصة .

* أستاذ المساعد / جامعة أم درمان الإسلامية / كلية اللغة العربية

Abstract:

This study investigated the different poetic forms of AL_ Muthagapb AL_Abdie The significance of this study emerged from the facts that the ancient critics did not study , criticize and analyze his poetry except incidentally . On the other hand , present critics do studied , cited what ancient critics said about the pest . Of ow ever , those present authors and critics did not separately study this poetics forms but they only provided general discussions in some of their writings . This study employed the descriptive analytic design as a research methodology . This study achieved a number of findings the most important of these are ; the poetry of AL_Abdie embraced may traditional poetic forms such as praising poetry , descriptive poetry and love poetry . The poet traced the path of the traditional Arabic poem in all its stylistic and linguistic characteristics . The study also found that there is a strong association between the pest and his personality represented in his continuous trips roaming between suburbs and cities .

The most important recommendation of this study are ; researches should investigate the poets of “Nukra “ . AL Muthaqab AL Abdie is among them , Beside many other poets as AL Mumazaq AL Abdie and AL Mufadl AL Nukri . However , researchers do nelected those poets and what is especially significant in studding their poetry is highlighting the poetry of Abd AL qaith in general and Nukra’s poetry in particular .

المقدمة

المثقب العبدى شاعر فحل جاهلي مقل، كان في زمن الملك عمرو بن هند، بيد أن مصادر الأدب التي ترجمت وروت له شعراً أهملت جوانب كثيرة من حياته، فلم تحدثنا عن مولده ونشأته وأسرته، فبقيت هذه الجوانب غامضة، ليس ثمة ما يفصح عنها، ثم طفقت استتطق شعره لعله ينطق بشيء يسير عنها، ولكنه صمت صمتاً مطبقاً. وأول ما جعلني أُنْغى بشعر المثقب قصيدته المفضلتان النونية (أفاطم قبل بينك متعيني) التي استجادها جل نقاد الشعر القديم، وميميته (لا تقولن إذا ما لم ترد ...)؛ لما فيها من مكارم الأخلاق. ولذا بحثت عن ديوانه غير أنني عدت خالي الوفاض غير مرة، ثم حصلت مؤخراً على نسخة محققة حديثاً بتحقيق وشرح الدكتور حسن حمد، فقوي عزمي على دراسة شعره مضموناً وشكلاً، بادئاً بأغراض شعره، رابطاً إياها بحياته، ورحلاته الدعوية بين البادية والحاضر جداً تارة، وهزلاً تارة أخرى. اشتملت هذه الدراسة على مقدمة وتعريف بحياة وشعر المثقب العبدى، متناولاً مكانته الشعرية عند النقاد قدماء ومحدثين، ثم دلفت للحديث عن أغراض شعره بدءاً بالوصف، وقد توفر شاعرنا لوصف الحيوان من ناقة، وفرس، وثور وحشي، ولوصف الناقة فيه القِدْحُ المُعْلَى. ثانياً: الغزل، وثالثاً: المدح، ورابعاً: الفخر، وخامساً: أغراض أخرى، اقتضب الشاعر القول فيها كالحكمة والعتاب واللدن في الخصومة. ثم لخصت الخاتمة أهم نتائج هذه الدراسة وأعقبته هوامش البحث، ثم ثبت المصادر والمراجع.

المتقّب العبدى : حياته وشعره :

أ- نسبه :

هو عائذ بن محصن بن ثعلبة بن واثلة بن عدي بن عوف بن دهن بن عذرة ابن مئبه بن نكرة بن كيز بن أقصى بن عبد القيس⁽¹⁾ ، بن أقصى بن دُعْمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار⁽²⁾ . وذكر ابن قتيبة أن اسمه محصن بن ثعلبة⁽³⁾ .

المتقّب شاعر فحل قديم جاهلي⁽⁴⁾ من أهل البحرين ، سُمي المتقّب لبیت قاله :

رَدَدَنْ نَحْيَةً وَكَنَنْ أُخْرَى وَتَقْبَنَ الْوَصَاوِصَ لِلْعُيُونِ⁽⁵⁾

ب- حياته :

لم تذكر المصادر شيئاً كثيراً عن حياة شاعرنا المتقّب العبدى خلا أنه من أهل البحرين ، كان في زمن الملك عمرو بن هند ثم شهد بضع سنوات من ملك أبي قابوس النعمان بن المنذر⁽⁶⁾ .

وفي أخباره أنه ولد في وسط القطيف وما حوله⁽⁷⁾ . لمع نجم أبيه محصن ابن ثعلبة لما أصلح بين بكر وتغلب بعد حرب البسوس⁽⁸⁾ .

يقول المتقّب⁽⁹⁾ :

أَبِي أَصْلَحَ الْحَيِّينَ بَكْرًا وَتَغْلِيًّا ❖ وَقَدْ أُرْعِشَتْ بَكْرٌ وَخَفَّ حُلُومُهَا

لم يذكر أحد ممن روى للمتقّب العبدى شعراً ، أو ترجم له شيئاً عن تاريخ محتمل لمولده عدا المستشرق جوستاف جرنباوم ، الذي جعل ميلاد شاعرنا المتقّب عام 550 م⁽¹⁰⁾ . وعلى هذا يكون المتقّب قد مات وعمره سبعة وثلاثون عاماً ، على أكثر الروايات التي تقول إنه توفي سنة 35 ق.هـ (587م) .

وجاء في ديوان المثقب : (رجح الصيرفي أن مولده قبل عام 550 م بخمسة عشر عاماً حتى يتطابق عمره وشعره ، فأن ينادي الملك عمرو بن هند ب (أخي) وهو ابن ثلاثة عشر ، أو حتى ثلاثة وعشرين عاماً ، فهذا لا يجوز ، لأن عمرو بن هند هذا تولى شؤون الملك عام 563 م ، وعلى هذا يكون عمر شاعرنا المثقب - حسب رواية جرنباوم - ، ثلاثة عشر ربيعاً ، وطال أمد حكمه حتى عام 587م ، يكون عمر شاعرنا ثمانية وعشرين عاماً فهل عُمر شاعرنا - حتى آخر حكم الملك عمرو بن هند هذا - يسمح له بمناداة الملك (أخي) :

فإِذَا أَنْ تَكُونَ أَخِي بِحَقٍّ ❖ فَأَعْرِفَ مِنْكَ غَنًى مِنْ سَمِينِي

وعلى هذا رجحنا مدة عمره بين 535 - 587م⁽¹¹⁾ . بيد أن جرنباوم لم يذكر مصدره الذي استقى منه تحديد مولد شاعرنا المثقب ، ثم وافق محقق الديوان حسن حمد الصيرفي في رأيه ، وكان الصيرفي قد سبق إلى تحقيق ديوان المثقب .

غير أن هذا كله قائم على الاستنتاج والترجيح لنص ورد في شعر المثقب العبدي لما خاطب الملك عمرو بن هند بعبارة (أخي) . على أننا هنا نفتقر إلى دليل قوي يؤكد عام مولد شاعرنا المثقب بخلاف كلمة (أخي) التي اعتمد عليها المحققان الفاضلان (الصيرفي وحسن حمد) .

ج- أسرته :

لم تذكر مصادر الأدب شيئاً عن أسرة شاعرنا المثقب ، وصمت شعره عن ذلك أيضاً .

د شعره :

المنقَّب العبدِي شاعر مجيد ، غريب الألفاظ ، متين التراكيب جداً ، ولكن شعره يَصِحُّ أحياناً ويسهل⁽¹²⁾ . امتاز شعره بوصفه لمجتمعه ، واصفاً عناصر السوء فيه من أولئك المنافقين الحُولُ القُلُب ، مادحاً أهل الكرم وبذل المال ، حاضاً على الاهتمام بالجار ، ورعاية حقه ، ذاكراً خلأته ، ومزاياء الكريمة الفضلى⁽¹³⁾ .
يقول المنقَّب⁽¹⁴⁾ :

واعلَمْ أَنَّ الدَّمَّ نَقْصٌ لِلْفَتَى ❖ ومَتَى لَا يَتَّقِ الدَّمَّ يُذَمَّ
أَكْرَمُ الْجَارِ وَأَرْعَى حَقَّهُ ❖ إِنَّ عِرْفَانَ الْفَتَى الْحَقُّ كَرَمُ
أَنَا بَيْتِي مِنْ مَعْدٍ فِي الذُّرَى ❖ وَلِي الْهَامَةُ وَالْفَرْعُ الْأَشْمُ
لَا تَرَانِي رَاتِعاً فِي مَجْلِسٍ ❖ فِي لُحُومِ النَّاسِ كَالسَّبْعِ الضَّرْمِ
إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَكْثِرُ لِي ❖ حِينَ يَلْقَانِي وَإِنْ غِبْتُ شَتَمَ
هذا ضرب من سهولة أسلوب المنقَّب ، وإنِّي لأجدها سهلاً ممتعاً ،
دون محاكاته خُرط القَتَاد ، خلافاً لرأي فروخ آنف الذكر .

في شعر المنقَّب وصف للحيوان ولاسيما الناقة ، واصفاً لها في حلة وترحاله قاطعاً المهامه والقفار ، مجيداً في وصفها ، ملماً بوصف الخيل والثور الوحشي ، ذاكراً الحرب والفرسان .
مدح المنقَّب الملوك مثل عمرو بن هند والنعمان بن المنذر في غير موضع من شعره . ولما لم يطمئن لأمر الملك عمرو بن هند خيرهُ شاعرنا بين الصداقة الحقّة والعداوة الصريحة ، قائلاً :
فإِذَا أَنْ تَكُونَ أَخِي بِحَقٍّ ❖ فَأَعْرِفْ مِنْكَ غُثِّي مِنْ سَمِينِي
وإِلَّا فَاطْرَحْنِي وَاتَّخِذْنِي ❖ عَدُوّاً أَتَّقِيكَ وَتَتَّقِينِي⁽¹⁵⁾

يبدأ أن عمر فروخ عدّ ذلك خشونة بدو قائلاً : (هذه صراحة وخشونة مألوفتان في البدو)⁽¹⁶⁾ .

ولعل المثقب هنا أثر الصراحة حين ارتاب في علاقته بالملك عمرو بن هند ، غير أنه بما تجرّه عليه هذه الصراحة من غضب الملك وعقابه . وأراها جرأة في التعبير وبُعْداً عن التفاف والمداهنة ، أكثر من كونها خشونة بدويّة كما قال فروخ .

ويرى جوستاف جرنباوم أن شاعرنا المثقب بدويّ ارتبط بالحضارة المدنية بروابط قويّة⁽¹⁷⁾ .

ومدح المثقب للنعمان بن المنذر فحواه التتويه بقوته وسلطانه الباطش تارة ، ونائله الغمر تارة أخرى⁽¹⁸⁾ :

فإن أبا قابُوسَ عُنْدِي بِلَاؤُهُ ♦ جَزَاءُ بُعْمَى لَا يَحِلُّ كُنُودُهَا
وَجَدْتُ زِنَادَ الصَّالِحِينَ ثَمِينُهُ ♦ قَدِيمًا كَمَا بَدَأَ النُّجُومَ
فَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ الْجِبَالَ ظَلَمَنُهُ ♦ أَتَاهُ بِأُمْرَاسِ الْجِبَالِ يَقُودُهَا
وللمثقب قصيدة جيّدة للغاية ذكرها ابن سلام مقرّظاً إياها⁽¹⁹⁾ .
وهي القصيدة النونية المفضلية التي مطلعها :

أَفَاطِمُ قَبْلَ بَيْنِكَ مَتَعِينِي ♦ وَمَنْعُكَ مَا سَأَلْتُكَ أَنْ تَبِينِي
وذكر ابن قتيبة شيئاً منها قائلاً : (كان أبو عمرو بن العلاء يستجيد هذه القصيدة له ويقول: لو كان الشعر مثلاً لوجب على الناس أن يتعلموه)⁽²⁰⁾ .

أكثر مصادر اللغة والأدب من الاستشهاد بشعر المثقّب العبدى⁽²¹⁾. وهو شعر رصين في لفظه ، جميل في سبكّه ، جيّد في معناه⁽²²⁾.

هو ديوانه :

حقّق ديوان لمثقّب ثلاث مرات ، حقّقه الشيخ محمد حسن آل ياسين ، ونشره في بغداد عام 1956م . ثم حقّقه الأستاذ حسن الصيرفي في القاهرة عام 1971م . ثم حقّقه كيرة ثالثة الدكتور حسن حمد ، شارحاً أبياته شرحاً موسّعاً جيّداً قائلاً (فرغبتُ في شرح الديوان بيتاً بيتاً ، تقريباً ، لشعر رصين جيّد إلى شباب اليوم ، وإيصلاً لمضامين أزليّة من أجدادنا إلى أولادنا وأحفادنا)⁽²³⁾.

وهي النسخة التي اعتمدتُ عليها في دراستي هذه .

أغراض شعر المثقب العبدى

أولاً : الوصف :

أ- وصف الناقة :

الوصف هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات⁽²⁴⁾. كان الحيوان للجاهليّ رفيق السفر، وشريكاً في الكفاح ضد مؤثرات الطبيعة وعواملها. ولعلّ ... والناقة من أهم موضوعات الوصف لالتصاقها بواقع الجاهلي ، ولاضطراره إليها في تنازع عيشه وبقائه⁽²⁵⁾.

وللناقة القدح المألّى بين موضوعات الوصف عند شاعرنا المثقب، فهي رفيقته في حله وترحاله ، فكم قطع بها المهامه والقفار في غير رحلة إلى ممدوحيه دون كلال أو ملال. واصفاً سرعتها واكتناز جسمها ، مشبهاً لها بالفحل؛ لكبر جسمها وشدته ، ثم شبهها كرة أخرى في حركة يديها بنائحة تلطم خديها . ذاكراً سيره بها في حمارة القيظ في طريق واضح يهدر فيه صوت الجن. واصفاً نشاطها، ووقع قوادمها على الحمى كأنه رنين في باطن الوادي، والأرض الوعرة، قائلاً⁽²⁶⁾:

حتى تُلَوِّفِيَتْ بِلَكِيَّةٍ	❖	مُعْجَمَةَ الحَارِكِ والمُوقِّدِ
تُعْطِيْكَ مَشْيًا حَسَنًا مَرَّةً	❖	حَتَّىكَ بِالْمِرْوَدِ والمُحْصَدِ
تَنْمِي بَنَهَاضٍ إِلَى حَارِكِ	❖	تَمَّ كَرُكُنَ الحَجَرِ الْأَصْلَدِ
كَأَنَّمَا أَوْبُ يُدِيْهَا إِلَى	❖	حَيَزُومَهَا فَوْقَ حَصَى الفَدْفَدِ
نُوحُ ابْنَةِ الجَوْنِ عَلَى هَالِكِ	❖	تَنْدُبُهُ رَافِعَةَ المَجْلَدِ

كَأَفْثَهَا تُهْجِرُ دَاوِيَّةٌ ♦ مِنْ بَعْدِ شَأْوِي لَيْلَهَا الْأَبْعَدُ
حتى قال (ص ٢٢٢) :

لَا يَرْفَعُ السَّوْطُ لَهَا رَاكِبٌ ♦ إِذَا الْمَهَارِي خَوْدَتْ فِي الْيَدِ
تَسْمَعُ تُغْزَا فَا لَهُ رُئَّةٌ ♦ فِي بَاطِنِ الْوَادِي وَفِي الْقَرْدَدِ
لا ينفك شاعرنا المثقّب يصف الناقة وصفاً ذا أفانين ، ذاكراً
خَلَقَهَا وسيرها وبُروكها ونشاطها ، مصوراً حياة الجاهلي أصدق
تصوير ، ولا سيما في البادية ، فهو دائم السفر مصطلياً بحرّ الهاجرة ،
ممتطياً ناقة مفتولة الذراعين ، واسعة الخطو ، يطوي سيرها السريع
البلاد طياً ، ناعثاً سيرها السريع فكان هراً مقيداً على جانبها يريد لها
الأذى ، وهي تبعده فكانها تُخادعه. وقد أيقن أن ناقته ستوصله -
بعون الله - إلى ممدوحه ، قائلاً⁽²⁸⁾ :

قَطَعْتُ بَفَتْلَاءِ الْيَدَيْنِ ذَرْيَةً ♦ يَغُولُ الْبِلَادَ سَوْمُهَا وَبَرِيدُهَا
فَبِتُّ وَبَايْتُ بِالتَّوْفَةِ نَاقَتِي ♦ وَبَايْتُ عَلَيْهَا صَفْنَتِي وَقَتُودُهَا
كَأَنَّ جَنِيْباً عِنْدَ مَقْعِدِ غَرْزِهَا ♦ ثَرَاوِدُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَبَرِيدُهَا
وَابْقَنْتُ - إِنْ شَاءَ الْإِلَهُ - ♦ سَيُبْلَغُنِي أَجْلَادُهَا وَقَصِيدُهَا

ولعلّ أجود وصف للناقة عند شاعرنا المثقّب في قصيدته النونية
(أفاطم قبل بينك متعيني) ، فقد وصفها وصفاً دقيقاً بأكثر من عشرين
بيتاً ينم عن حسّ بدوي وإدراك بقيمة الناقة في حياته ، مسهباً في وصف
ضُمُور خصرها ، وزفرائها وسرعتها وذيلها ، وقلة لبنها ، وصوت أنيابها
، ومشبهاً لها بالسفينة حين تتصبّب عرقاً ، مكسباً إياها صفة
الإحساس ، إذ هي تتأوه آهة الرجل الحزين حين يضع عليها الرجل ،

ذاكراً أنها تتأوه حنيناً لديارها ، ملماً بالحديث عن ضجرها من طول حله وارتحاله في البوادي لا يريحها ولا يستريح⁽²⁹⁾ .

جاعلاً إياها تتكلم قائلة : ما لهذا الرجل يسافر دائماً ، هل ستبقى هذه عادته وتبقى عادتي في حمله وإيصاله لمطلبه . ثم يزعم أنها تقول : أهكذا نبقى على طول الزمن في سفر ، ألا يخاف عليّ ويحافظ على بقائي سالمة لكي أحمله .

وبعد أن أخبرته الناقة بلسان حالها لا بلسان مقالها كما زعم شاعرنا المثقّب ، عاد كرة أخرى واصفاً قوتها وضخامتها بعد أن براها السير. لقد أبقى ارتحاله في جدّه وباطله منها هيكلًا ضخماً كأنه بنيان مدكوك⁽³⁰⁾ . يقول المثقّب⁽³¹⁾ :

فَسَلِّهِمَ عَنْكَ بِذَاتِ لَوْثٍ ❖ عُدَافِرَةٌ كَمِطْرَقَةِ الْقَيُونِ
بِصَادِقَةِ الْوَجِيفِ كَأَنَّ هَرًّا ❖ يُبَارِيهَا وَيَأْخُذُ بِالْوَضَيْنِ
إِذَا مَا قُمْتَ أَرْحَلُهَا بَلِيلٍ ❖ تَأْوُهُ آهَةٌ الرَّجُلِ الْحَزِينِ
تَقُولُ إِذَا دَرَأْتُ لَهَا وَضَيْنِي ❖ أَهَذَا دَيْئُهُ أَبَدًا وَدَيْنِي ؟
أَكُلُّ الدَّهْرِ حُلًّا وَارْتِحَالًا ❖ أَمَا يُبْقِي عَلَيَّ وَمَا يَقِينِي !
فَأَبْقَى بَاطِلِي وَالْجِدُّ مِنْهَا ❖ كَدُكَّانِ الدَّرَابِنَةِ الْمَطِينِ

وهكذا بدا لنا وصف الناقة عند شاعرنا المثقّب فلذة إثر فلذة ، فهي رفيقته في سفر طويل الأمد مجتازاً المفاوز والفلوات ، يتبع ليله نهاره حتى جارت بالشكوى غير مرة (أهذا دينه أبداً وديني) مشبهاً إياها بتشبيهات عدة بموصوفات من بيئته. ورغم أن ابن رشيق القيرواني لم يذكر شاعرنا المثقّب ضمن نعات الإبل حين قال : (وأما نعات الإبل

فَطَرْفَةٌ فِي مَعْلَقَةٍ مِنْ أَفْضَلِهِمْ ، وَأَوْسُ بْنُ حَجَرٍ ، وَكَعْبُ بْنُ زَهِيرٍ
وَالشَّمَّاحُ ، وَأَكْثَرُ الْقِدْمَاءِ يَجِيدُ وَصْفَهَا ؛ لِأَنَّهَا مَرَاكِبُهُمْ ...⁽³³⁾ .

وعبارة ابن رشيقي (وأكثر القدماء يجيد وصفها ...) تدخل
شاعرنا المثقّب في ثُغَاتِ الإبل ، ولعل هذا كافٍ لئلا نغمط المثقّب حقه
في جودة الوصف .

وقمين بالذكر أن المثقّب لم يذكر البعير إلا في معرض تشبيهه
ناقته به في الضخامة والقوة ، ولعل رفيقته الناقة شغلته عما سواها .
ويؤخذ على المثقّب أنه كافاً ناقته أسوأ مكافأة غير مشفق عليها رغم
ما قدمته له من أياد بيضاء ، لما أوصلته إلى ممدوحيه ممتطياً إياها في
جده وهزله .

ب- وصف الفرس :

وصف شاعرنا المثقّب الفرس وصفاً مقتضباً ، ذاكراً أنه لا يرى
غنى وثروة يملكها الفتى ، إذا لم يكن مالكاً درعاً واسعة لينة جيّدة
، ورمحاً قوياً ، وجواداً ضخماً قادراً على الصبر في المعارك ، مرتفع
الجانين ، ضخّم الأطراف ، معوج الساقين ، ضامر الخصرين ،
قائلاً⁽³⁴⁾ :

وَلَا أَرَى مَالاً إِذَا لَمْ يَكُنْ ❖ زَغْفٌ ، وَخَطَارٌ وَنَهْدٌ مُعَارٌ
مُسْتَشْرِفُ الْقَطَرَيْنِ ، عَيْلٌ ❖ مُحَنَّبُ الرَّجْلَيْنِ فِيهِ أَقْوَارٌ
ذكر المثقّب الفرس في موضعين مفردين من شعره ، واصفاً فرساً
أثيراً إلى قلبه ، عالجه وسقاه اللبن دون ماء حتى حان وقت الشتاء ،
وعندئذ غدا قوياً يخلع الوتد المربوط بالحبل ، يقول⁽³⁵⁾ :

ذَاوَيْئُهُ بِالْمَحْضِ حَتَّى شَتَا ❖ يَجْتَذِبُ الْآرَى بِالْمِرْوَدِ

وهذا وصف للخيل قاطبة حين يكون الفرسان على صهواتها ، فهي نشيطة لا ينتابها الكلال ، يظهر العرق على جسمها كأنه يسيل لغزارته ، وقد غدت أجسامها سوداء كثرون البقر الوحشية لكثرة الغبار الذي لصق بعرقها من جهد المعركة ، يقول المثقب⁽³⁶⁾ :

تَبَّعُ مَنْ أَعْطَافِهَا وَجُلُودَهَا ❖ حَمِيمٌ وَأَضَتْ كَالْحَمَالِيجِ

وهكذا بدا وصف الفرس عند شاعرنا المثقب مقتضياً رغم أنه عدَّ امتلاك الفرس ثروة لا غنى عنها. ولعل حياته البدوية القحّة وملازمته ناقتة رديحاً من الزمان ، لم تتح له سانحة لوصف الفرس وصفاً يُحقّقه بتُعَات الخيل الذين كانوا ذا فوق في وصفها .

ج- وصف الثور الوحشي :

وصف المثقب الثور الوحشي استطراداً لما شبه ناقتة به في صورة تكاد تكون مكرورة في جل الشعر القديم ، فحواها خوف الثور من الصائد وكلايه ، مشبهاً تردد أحشائه المنهارة من الفرع بفزع العصافير واضطرابها . واصفاً سفعة وجهه (سواد فيه حُمرة) ، وأكله البقل النابت من مطر شديد القطر ، وشدة سمعه ، وانطلاقه مسرعاً مخلفاً وراءه غباراً كَحَبْلٍ من ليف أملس ، وهو يركض في أرض خلاء ليس فيها غير صوت الجن ، وقطعان متفرقة من الدواب ترعى هنا وهناك. وبعدئذ وصل الثور إلى موضعين هما (العليا والمنتهي) مقيماً فيهما وقت الهجرة، مائلاً باتجاه المغرب ، غير منحرف عن هدفه. يقول المثقب⁽³⁷⁾ :

كَأَنَّهَا أَسْفَعُ ذُو جُدَّةٍ ❖ يَمْسُدُهُ الْوَيْلُ وَلَيْلُ سَدِ

يُصِيخُ لِلْبَبَاةِ أَسْمَاعُهُ ❖ إِصَاخَةُ النَّاشِدِ لِلْمُنْشِدِ

ضَمَّ صِمَاحِيَهُ لُنُكْرِيَّةٍ ♦ مِنْ حَشِيَّةِ الْقَانِصِ وَالْمُؤَسَّدِ
يَتَّبَعُهُ فِي إِثْرِهِ وَاصِلٌ ♦ مِثْلُ رِشَاءِ الْحُلْبِ الْأَجْرَدِ
فِي بَلَدَةٍ تَغْزِفُ جَنَائِهَا ♦ فِيهَا خَنَاطِيلُ مِنَ الرُّودِ
قَاطِإِلَى الْعُلْيَا وَإِلَى الْمُنْتَهَى ♦ مُسْتَعْرِضَ الْمَغْرِبِ لَمْ يَغْضُدِ

ورغم أن المثقّب مضى مستطرداً في وصف الثور إلى آخر الشوط ، بيد أنه أفصح بأن ذا الوصف لم يقصده ، ولم يكن معتاداً على هذا التشبيه ، فقد جاء عفو الخاطر ، قائلاً⁽³⁹⁾ :

فَذَاكُمْ شَبَّهْتُهُ نَاقَتِي ♦ مُرْتَجِلاً فِيهَا وَلَمْ أُعْتَدِ
ولعلّ أجود ما في هذا الوصف تشبيه المثقّب للغبار يحبل من ليف
أملس ، حتى ذكر أبوبكر بن دريد : (لم يوصف الغبار بأحسن من
لفظ هذا قَطْل)⁽⁴⁰⁾ .

ثانياً الغزل :

الغزل هو إلف النساء والتخلّق بما يوافقهن⁽⁴¹⁾ . والغزل عند
الشاعر القديم ليس فناً مستقلاً برأسه ، وإنما هو غرض من الأغراض
المتعددة التي تشتمل عليها قصيدته ، ولكن له حق الصدارة التي
يستهل به ثم ينتهي منه إلى غيره⁽⁴²⁾ .

استهل شاعرنا المثقّب غير قصيدة من شعره بالغزل ، ذاكراً
اسم محبوبته تارة ، ممتعاً عنه أخرى ، وهو غزل مفعم بذكريات
الماضي ، وغير قليل من الحزن على فراق الأحبة ، وقد أكثر فيه
الشاعر من الاستفهام غير مرة ، ناعثاً محبوبته بالغانية ، متجشّماً

الصبر إليها ، رغم ما طلبته من ثمن باهظ جداً نظير شربة ماء من يدها ، قائلاً⁽⁴³⁾ :

هَلْ عِنْدَ غَانٍ لِفُؤَادٍ صَدْرٍ ❖ مِنْ نَهْلَةٍ فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي غَدٍ
يَجْزِي بِهَا الْجَاوُونَ عَنِّي وَلَوْ ❖ يُمْنَعُ شُرْبِي لَسَقَتْنِي يَدِي
قَالَتْ: أَلَا لَا يُشْتَرَى ذَاكُمُ ❖ إِلَّا بِمَا شِئْنَا وَلَمْ يُوجَدِ
وشمة محبوبية أخرى أسماها الشاعر هنداً ، شاكياً ضنها بتمتيعه
وانصراف فؤادها عنه ، جاعلة جديد وصلها قديماً بالياً ، ذاكراً
سرعة تقلبها ، يقول⁽⁴⁴⁾ :

أَلَا إِنَّ هِنْدًا أَمْسِرَتْ جَدِيدُهَا ❖ وَضُنْتُ وَمَا كَانَ الْمَتَاعُ يُوودُهَا
فَلَوْ أَنَّهَا مِنْ قَبْلُ جَادَتْ لَنَا بِهِ ❖ عَلَى الْعَهْدِ إِذْ تَصْطَاذُنِي
وَلَكِنَّهَا مِمَّا تَمِيطُ بُوْدُهَا ❖ بِشَاشَةٍ أَدْنَى حُلَّةٍ تَسْتَفِيدُهَا
ولعل خلف الوعد سمة تلازم محبوبات شاعرنا المثقّب فهذه
محبوبته فاطمة ، طالباً إليها أن تُبقي له شيئاً من وصلها قبل فراقها ،
وأن لا تعدّه كذباً ، فيمر الصيف بمواعيدها دون أن يلتقيا ، ذاكراً
أنه يجازي القطيعة بمثلها ولو جاءت من حبيبة أثيرة لدى قلبه . يقول
المثقّب⁽⁴⁵⁾ :

أَفَاطَمُ! قَبْلَ بَيْنِكَ مَتَّعْنِي ❖ وَمَنْعُكَ مَا سَأَلْتُكَ أَنْ تَبِينِي
فَلَا تَعِدِي مَوَاعِدَ كَاذِبَاتٍ ❖ تَمُرُّ بِهَا رِيَاخُ الصَّيْفِ دُونِي
فَإِنِّي لَوْ تُخَالَفْتَنِي شِمَالِي ❖ خِلَافُكَ مَا وَصَلْتُ بِهَا يَمِينِي

إِذَا لَقَطَعْتُهَا وَلَقُلْتُ: بَيْنِي ❖ كَذَلِكَ أَجْتَوِي مَنْ يَجْتَوِينِي

برع شاعرنا المثقّب في موضوع وثيق الصلة بالغزل وهو وصف
ظعن الحبيبة ، وتبع سيرها ، ونعت النساء في هوداجهن نعتاً لعله أطول
وأمتع ما قيل في الظعن ، يقول: (46)

لِمَنْ ظُعُنْ تَطْلُعُ مِنْ صَبِيبِ ❖ فَمَا خَرَجْتُ مِنَ الْوَادِي لِحِينِ

مَرَرْنَ عَلَى شَرَافِ فِذَاتِ هَجَلٍ ❖ وَكَبِنَ الذَّرَانَجَ بِالْيَمِينِ

وَهُنَّ كَذَلِكَ حِينَ قَطَعْنَ فَلْجاً ❖ كَأَنَّ حُدُوجَهُنَّ عَلَى سَفِينِ

وَهُنَّ عَلَى الرَّجَائِزِ وَاكِنَاتٍ ❖ قَوَاتِلُ كُلِّ أَشْجَعٍ مُسْتَكِينِ

وصف المثقّب الظعن متسائلاً عن نساء مسافرات ظهرن من قرب
(صبيب) ، وسرن في الوادي متمهلات ، ثم خرجن بعد إبطاء ، وقد
جاوزن عدة مواضع مثل (شراف وذات هجل) وجعلن (الذرانج) على
يمينهن ، ثم عبرن (فلجاً) كأنّ مراكبهن على سطوح سفن تمشي
الهوينى ، وهن نساء حسان يخضع لهن الفرسان حين يقتلنهم بلحاضهن .

لا ينفك شاعرنا المثقّب يصف الظعن ، مشبهاً النسوة بغزلان
تتناول أغصاناً قريبة من شجر السّدر البري ، وقد ابتعدن عن صاحبتهم
، وراهن الشاعر من خلال ستر رقيق ، ثم أرخين ستراً جعلن فيه
فتحات على قدر عيونهن ليرين دون أن يراهن أحد ، ناعثاً ما بدا له من
حسنهن ، وما أخفين أكثر مما أبدين ، ذاكرةً أسرهن القلوب ،
مراقباً لهن علّ حلوته تكون بينهن ، هامساً لبعضهن ، وقد جهز ناقته
للسفر في حمارة القيظ ، قائلاً (48) :

كغزلانٍ خذلنَ بذاتِ ضالٍ ❖ تنوشُ الدَّانِيَاتِ مِنَ الْغُصُونِ

ظَهَرَ بِكَلِّهِ ، وَسَدَلْنَ رَقْمًا ♦ وَثَقَّنَ الْوَصَاوِصَ لِلْعُيُونِ
أَرَيْنَ مُحَاسِنًا وَكُنْتُ أُخْرَى ♦ مِنَ الْأَحْيَادِ وَالْبَشَرِ الْمَصُونِ
فَقُلْتُ لِبَعْضِهِنَّ ، وَشُدَّ رَحْلِي ♦ لَهَا جِرَّةٌ عَصَبْتُ لَهَا جَبِينِي

وهذا وصف آخر للظعن وموقف الفراق ، تساءل فيه الشاعر مستفهماً غير مرة ، هل يستطيع قلبه المتيم نسيان محبوبته؟ فذكرها تلح عليه ملازمة إياه لا تبرحه قيد أنملة ، واصفاً حزنه لفراقها ذارفاً دمعاً غزيراً ، مشبهاً له بحبات اللؤلؤ لما رأى ليلى وصاحباتها في هوداجهن مسافرات صباحاً لائماً عقله الذي لم ينهه عن بكائه وطيشه ، قائلاً⁽⁴⁹⁾ :

هَلْ لِهَذَا الْقَلْبِ سَمْعٌ أَوْ بَصَرٌ ♦ أَوْ تَنَاهٍ عَنْ حَبِيبٍ يُدَكَّرُ
أَوْ لِدَمْعٍ عَنْ سَفَاهٍ تُهَيَّئُ ♦ تَمْتَرِي مِنْهُ أَسَابِي الدَّرَرِ
مُرْمِعَاتٍ كَسَمَطِي لُؤْلُؤُ ♦ خَذَلْتُ أَخْرَائُهُ فِيهِ مَقَرُ
إِنْ رَأَى ظُغُنًا لِلَّيْلِ غُدُوَّةٌ ♦ قَدْ عَلَا الْحَزْمَاءُ مِنْهُنَّ أَسْرُ

ومما تقدم يتضح أن الغزل عند شاعرنا المثقّب نأى عن الصفات الحسية إلاّ اليسير منها ، ذاكرةً الوصل والهجر ، وقد بدا فيه الشاعر حزناً جزعاً ذارفاً دموعاً غزاراً لفراق الأحبة ، واصفاً الظعن ، مسهباً في الحديث عنه ، وهو وصف بارع وممتع للغاية ، لما أرانا رحلة الظعن بكل تفاصيلها في نسق منسجم. وبعض من غزل المثقّب جاء تقليداً لما تواضع الشعراء عليه من ذكر المرأة في مستهل قصائدهم دون أن يصدر عن عاطفة حرّى أو هوى جامع ، ذاكرةً عدة أسماء مثل ليلى وفاطمة وغانية ، ولعل هذا من قبيل قول ابن رشيق القيرواني ، (وللشعراء

أسماء تخف على ألسنتهم وتحلو في أفواههم فهم كثيراً ما يأتون بها زوراً نحو ليلي ، وهند ، وسلمى ، ودعد ... وفاطمة ... وأشباههن⁽⁵⁰⁾ .

ثالثاً: المدح :

المدح باب رئيس من أبواب الشعر في الجاهلية؛ لاتصاله بالحياة القبلية ، فقد كان على الشاعر أن يدافع عن أعراض قومه ويمدح ساداتهم وفرسانهم ، ويطري فضائلهم ويمجد أعمالهم⁽⁵¹⁾ .

مدح شاعرنا المثقّب الملوك في عصره في طليعتهم الملك عمرو بن هند ، وأبوقابوس النعمان بن المنذر ، فالأول ملك كريم بسّام ، ذو أصل عريق قوي مهّاب إن ضرب بسيفه شجرة غاص إل بطنها ، منسوب لحجر وعائد ، يصل نسبه للمنذر الأكبر ، ثم أثنى الشاعر على جهود الملك عمرو بن هند في توطيد أركان الملك ، ذاكراً كتيبته (دوسر) وحسن بلائها ، داعياً الله جل وعلا أن يحسن مكافأته على نجدته لهم ، وإن جحد آخرون معروفه ، متحدثاً عن صنيع الملك أنه أصلح الأمر ، ومنع الظلم ، واقتص من الظالم بعدما أصابه الفرور فأمال خده تيهاً ، جاعلاً خاتمه القصيدة ناطقة بقوة الملك ومنعته ، لقد أهلك عيش الدهر من أهلك ثم جاء الملك عمرو بن هند فأهلك من كان عيشه حلواً ، وجعله مرّاً قاسياً .

يقول المثقّب⁽⁵²⁾ :

- ❖ وإلى عمرو — وإن لم آتِه — تُجْلِبُ المِدْحَةُ أو يَمْضَى السَّفَرُ
- ❖ وَاضِحُ الْوَجْهِ، كَرِيمٌ نُجْرُهُ مَلَكُ السَّيْفِ إِلَى بَطْنِ الْعُشْرِ
- ❖ حَجَرِيَّ عَائِدِيَّ نَسَباً ثُمَّ لِلْمُنْذِرِ إِذْ جَلَى الْخَمَرُ

- ضربت دوسرُ فينا ضربةً ♦ أثبتت أوتادُ ملكٍ مُستقرٍ
صَبَحْنَا فَيَلَقُ مَلْمُومَةً ♦ تَمْنَعُ الْأَعْقَابَ مِنْهُنَّ الْأَخْرَ
فَجَزَاهُ اللَّهُ مَنْ ذِي نِعْمَةٍ ♦ وَجَزَاهُ اللَّهُ إِنْ عَبْدٌ كَفَرَ
وَأَقَامَ الرَّأْسَ وَقَعَّ صَارِقُ ♦ بَعْدَ مَا صَافَ، وَفِي الْخَدِّ صَعْرُ
وَلَقَدْ رَامُوا بِسَعْيٍ نَاقِصٍ ♦ كِي يُزِيلُوهُ فَأَعْيَا وَأَبْرَ
وَلَقَدْ أَوْدَى بِمَنْ أَوْدَى بِهِ ♦ عَيْشُ دَهْرٍ كَانَ حُلُوءاً فَأَمْرُ

ولعل شاعرنا المثقَّب سلك سبيل الإيجاز في مدحه الملك عمرو بن هند ، مشيداً بكرم أصله وعرقه ، جامعاً صفات القوة والمنعة في ممدوحه ، بيد أن الأمور بعد ذلك لم تسر كما يحب شاعرنا ويهوى ، إذ نجده يخاطب الملك عمرو ابن هند في موضع آخر من شعره مخيراً إياه بين الصداقة الحقة والعداوة الصريحة ، قائلاً⁽⁵³⁾ :

- فَأِمَّا أَنْ تَكُونَ أَخِي بِحَقٍّ ♦ فَأَعْرِفَ مِنْكَ غُثِّي مِنْ ثَمِينِي
وَالْأَفْطَرْحَنِي وَاتَّخِذْنِي ♦ عَدُوًّا أَنْقِيكَ وَتَتَّقِينِي

أي إن لم تكن الأخوة على ما بينت فانقض مما بيني وبينك يدك ، واتخذني عدواً لك احترز منك وتحترز أنت مني ، وينطوي كل منا على ضغن صاحبه ، والحذر من شره⁽⁵⁴⁾ .

ولكن الأصمعي قال: (أراه غير الملك؛ لأنه لم يكن ليخاطبه بمثل هذا الكلام)⁽⁵⁵⁾ .

وثمة أمثلة تجرأ فيها الشعراء على الملوك بنبرة أكثر حدة مما قال شاعرنا المثقّب ، ففي شعر جابر بن حنى التغلبيّ ويزيد بن الخدّاق الشني غير قليل من تلك الجرأة في مخاطبة الملوك⁽⁵⁶⁾ .

ولذا فشك الأصمعي في بيتي المثقّب (فأما أن تكون أخي) في غير مكانه ، فهما لا يتجاوزان التخيير بين الصداقة الحقّة ، والعداوة الصريحة وإن عدّها عمر فروخ خشونة بدو⁽⁵⁷⁾ .

مدح شاعرنا المثقّب أبا قابوس النعمان بن المنذر ناعثاً إحسانه الذي لا ينكر وأنه من سلف صالح ، زادوه كرمًا ، كما علت الكواكب على النجوم ، مبالغاً في مدحه بأنه الأعلى مكانة بين الملوك بذّهم فعلاً وكرمًا وجوداً . ذاكراً بطشه بالأعداء حين يرسل كتيبة ضخمة تحمل رسل الموت يصل صوت مشي عسكريها إلى أطراف الأرض ، متجاوزاً إياها إلى عنان الفضاء ، قائلاً⁽⁵⁸⁾ :

فإنّ أبا قابوسَ عندي بلاؤه ♦ جزاء بُعِمَى لا يحلّ كنودها
وجدتُ زناد الصّالحينَ نمينه ♦ قديماً كما بدّ النّجوم
فلو علّم الله الجبال ظلمنه ♦ أتاه بأمراس الجبال يقودها
إلى ملكٍ بدّ الملوك بسعيه ♦ أفاعليه حزمُ الملوك وجودها
وجأواء فيها كوكبُ الموت ♦ تقمّص بالأرض الفضاء وتأيدها

وتبدو صورة مدح الملكين عمرو بن هند والنعمان بن المنذر واحدة في كثير من قسماتها من مدح بكرم الأرومة ، وإخضاع قبائل من العرب ، ونعت الكتيبة ، وهو مدح سهل الألفاظ سلسها ليس فيه

لفظة حوشية متنوعة ، رغم أن شاعرنا المثقّب جاهلي قديم ، ولعل صلة شاعرنا بالحاضرة عبر رحلاته الدؤوبة إليها أكسبته هذه السهولة .
ومن جيد المدح عند شاعرنا المثقّب مدحه خالد بن أنمار الذي فك أسر ابن أخت الشاعر وهو شأس بن نهار المعروف بالممزق العبدى ،
قائلاً⁽⁵⁹⁾ :

إنما جَادَ بشأسٍ خَالِدٌ ♦ بعدما حَاقَتْ بهِ إحدى
من مَنَايا يَتَخَسَّيْنَ بهِ ♦ يَيْتَدِرْنَ الزُّوْلَ من لحمٍ ودمٍ
بَاكِرُ الجَفْنَةِ رِبْعِيُّ التَّدَى ♦ حَسَنُ مَجْلِسُهُ غَيْرُ لَطَمٍ
يَجْعَلُ المَالِ عَطَايا جَمَّةً ♦ إِنْ بَذَلَ المَالِ فِي العَرَضِ أَمَمٍ
لَا يُيَالِي طَيْبُ النَفْسِ بهِ ♦ عَطَبَ المَالِ إِذَا العَرَضُ سَلِمَ

فك خالد أسر الممزق بعدما أحاطت به إحدى الشدائد التي كانت تأتيه واحدة بعد أخرى ، ناعتاً كرم خالد الذي يباكر الجميع ويسبقهم ، مطعماً الناس من جفانه ، ذاكراً حسن مجلسه لما فيه من سكون وحلم وبذله المال لذوي الحاجات ، وهذا قمين بأن يجعل عرضه يسلم من الشتم واللعن ، غير آبهٍ لفقدان المال أو نفاذه . وهذا المدح وإن بدا قليلاً كمّاً فهو كثير كيفاً وجودة ، فشاعرنا المثقّب مدح ممدوحيه بما يوافقهم ، ناعتاً عمرو بن هند والنعمان بن المنذر بكرم الأصل والقوة والمنعة والبطش بالأعداء ، ثم أطرى كرم خالد وطيب معشره ، وكثرة عطاياه وجعله ماله وقاية لعرضه⁽⁶¹⁾ .

ولعل شارعنا المثقّب سلك طريقة الإيضاح والإشادة بممدوحيه ، وإن خير ممدوحه عمرو بن هند بين الصداقة الحقة والعداوة الصريحة ، محققاً غير قليل من شروط وجودة المدح ، ولاسيما مدح الملوك التي ذكرها ابن رشيق القيرواني قائلاً : (وسبيل الشاعر إذا مدح ملكاً أن

يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكر الممدوح، وأن يجعل معانيه جزلة ، وألفاظه نقية ، غير مبتذلة سوقية ... ويجتنب مع ذلك ... والتجاوز والتطويل⁽⁶²⁾ .

ربعاً: الفخر :

الفخر تعبير عن الناحية الإيجابية من مصير الإنسان ، إنه تعبير عن النصر ، والتكافؤ والشعور بالرضا عن النفس وعن الوجود . وكانت طبيعة العصر الجاهلي توافق طبيعة الشعر الفخري أو بالأحرى كانت تلزم الشاعر بها ، لما كانت حياة الجاهليين حروباً وغزوات لا هوادة فيها في سبيل العيش⁽⁶³⁾ .

عد ابن رشيق القيرواني الفخر والمدح شيئاً واحداً ، إلا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه (الفخر) ، وكل ما حسن في المدح حسن في الافتخار ، وكل ما قبح فيه قبح في الافتخار⁽⁶⁴⁾ .

لشاعرنا المثقّب فخر قبلي وآخر ذاتي، فقد فخر غير مرة بشجاعة قومه وظهورهم على أعدائهم في غير معركة ، ذاكراً أن أباه أصلح بين الإخوة من بكر وتغلب ، بعدما طاشت بكر وارتعدت من الغضب ، ثم أصلح بين عوف وعامر ، واضعاً خطة صلح محكمة لا عيب ولا لوم فيها ، قائلاً⁽⁶⁵⁾ :

- أرى بدعاً مُستَحْدَثات تُريّني ♦ يَجُوزُ بها مُستَضْعَفٌ وحليمُها
- فإنَّكَ أُمُوالٌ أُصِيبَتْ وحُولَتْ ♦ ديارٌ فقد كُتِبَ بدارٍ لقيمُها
- ونحْمي عَن التَّغْرِ المَخُوفِ ويُتَقَى ♦ بغارتنا كَيْدُ العَدَى وضُيُومُها
- نُعْدُ لَأَيَّامِ الحِفاظِ مكارِماً ♦ فعِلاً وأَعراضاً صحيحاً أديمُها

أَبِي أَصْلَحَ الْحَيِّينَ بَكَرًا وَتَغْلِبًا ❖ وَقَدْ أُرْعَشْتَ بَكَرٌ وَخَفًا
وَقَامَ بَصْلَحٌ بَيْنَ عَوْفٍ وَعَامِرٍ ❖ وَخُطَّةُ فَصْلٍ مَا يُعَابُ رَعِيمُهَا
لَا يَنْفَكُ الْمُثَقَّبُ بِفَخْرِ بَرِّجَالِ قَبِيلَتِهِ مِنْوَهَا بِكَرَمِهِمْ وَأُرِيحِيَتِهِمْ فِي
الليالي ذات البرد القارس، واصفًا تكاتفهم في السراء والضراء،
ورفعهم الظلم عن الآخرين .
يقول المثقَّبُ (66) :

إِذَا الرِّيحُ جَاءَتْ بِالْجَهَامِ تَشْلُهُ ❖ هَذَا لَيْلُهُ شَلَّ الْقَلَاصِ الطَّرَائِدِ
كَفَى حَاجَةً الْأَضْيَافِ حَتَّى ❖ عَنِ الْحَيِّ مَنَّا كُلُّ أَرْوَعٍ مَا جَدِ
وَلَيْسَ أَخُونَا عِنْدَ شَرِّ يَخَافُهُ ❖ وَلَا عِنْدَ خَيْرٍ إِنْ رَجَاهُ بَوَاحِدِ
إِذَا قِيلَ مَنْ لِّلْمَعْضَلَاتِ أَجَابُهُ ❖ عِظَامُ اللَّهِى مَنَّا طَوَالُ
ولعل أفضل مما فخر به شاعرنا المثقَّبُ شيمه ومزاياه الشخصية
من إكرام الجار، وتحاشي الغيبة وتجنب الرياء والحلم على الجهَّال،
قائلاً (67) :

أَكْرَمُ الْجَارِ وَأَرْعَى حَقَّهُ ❖ إِنَّ عِرْفَانَ الْفَتَى الْحَقُّ كَرَمُ
أَنَا بَيْتِي مِنْ مَعْلٍ فِي الدُّرَى ❖ وَلِي الْهَامَةُ وَالْفَرْعُ الْأَشْمُ
لَا تَرَانِي رَاتِعًا فِي مَجْلِسٍ ❖ فِي لُحُومِ النَّاسِ كَالسَّبْعِ
إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَكْشُرُ لِي ❖ حَيْنَ يَلْقَانِي وَإِنْ غِبْتُ شَتَمَ
وَكَلَامِ سَيِّئٍ قَدْ وَقَرْتُ ❖ عَنْهُ أَدْنَى وَمَا بِي مِنْ صَمَمٍ
فَتَعَزَّيْتُ خَشَاةً أَنْ يَرَى ❖ جَاهِلٌ أَنِّي كَمَا كَانَ زَعَمَ
وَلِبَعْضِ الصَّفْحِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْ ❖ ذِي الْخَنَاءِ أَبْقَى وَإِنْ كَانَ ظَلَمَ

أَجْعَلُ الْمَالَ لِعِرْضِي جُزْءً ♦ إِنَّ خَيْرَ الْمَالِ مَا آدَى الدَّمَ
فخر المثقّب بدماثة خلقه ، فهو من أصل كريم ينتمي إلى أشرف
أولاد معد بن عدنان ، وأن بيته من أشرف البيوت التي تتحدر من معد
بن عدنان ، وإن عُدَّ النسب فله أكرم وأعلى منزلة فيه .

أسهب المثقّب في الحديث عن شيمه وخصاله ، وهو لا يتحدث في
أعراض الناس بما يكرهون ولا يفتابهم بما يؤذي جسومهم ونفوسهم ،
مشبهاً اغتياب الناس بأكل لحومهم من قبل أسد نهم شره ، إنها صورة
تتفرّ من الغيبة؛ لما فيها من إفساد عظيم بين الناس ، يقول الحق تبارك
وتعالى : (أُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ) ⁽⁶⁸⁾ .

وشاعرنا المثقّب لا يكتفي بأنه لا يخوض في أعراض الناس وحسب ، بل
يزيد على ذلك بأنه يسد أذنيه عن سماع الكلام السيئ ، رغم أن سمعه
سليم ، وليس به ثقل أو صمم . ثم أخبر بأنه تصبّر على المكاره خوفاً
من أن يظن به جاهل نقصاً كان قد ألصق به ، وقد ابتعد عن الفاحش
البذيء متجاوزاً عن كلامه تعففاً عن الرد عليه ، جاعلاً ماله ساتراً
وحصناً أمام عرضه وشرفه ، وأن خير المال ما حقق العهود والحرمان
وصانها سالمة من كل عيب وذنس .

وهكذا بدت صورة الفخر عند شاعرنا المثقّب مألوفة مكرورة
عند جل شعراء عصره ، من نعت رجال القبيلة بالشجاعة وحسن الفعال
، بيد أن فخره بشيمه ودماثة خلقه جيد للغاية من رعاية حقوق الجار ،
وتحاشي الغيبة ، والحلم على الجهال ، وهي معاني جديّة عظيمة يفتقر
إليها الناس في كل زمان ومكان ، قميّة بالدرس والتطبيق .

خامساً : أغراض أخرى :

أ/ الحكمة :

لشاعرنا المثقّب حكم بثها في بعض قصائدها معبراً فيها عن تجاربه في الحياة وسبّره أغوار الناس ، مقدّماً للناس نصائح جمة من وجوب الوفاء بالوعد ، واتقاء الذم والسب ، داعياً إلى الاعتداد بالنفس وأن يُصدر المرء عن رأيه لا عن آراء الآخرين ، فإن لم يتحرك الإنسان إلاّ مدفوعاً أو لاهناً وراء غيره ، فحياته وموته سيان ، بل موته خير من حياته . ثم دعا كرة أخرى لأن يواجه المرء مشكلاته بنفسه ، ولا يكن ضعيفاً خوّاراً يميل إلى الدعة والاتكاء على الوسائد .

يقول المثقّب (69) :

لا تقولنّ إذا ما لم تُردّ أن تُتِمَّ الوعدُ في شيءٍ نعم
واعلم أن الذمَّ نقصٌ للفتى ♦ ومتى لا يتق الذمُّ يذم
وللموت خيرٌ للفتى من حياته ♦ إذا لم يثب للأمر إلا بقائده⁽⁷⁰⁾
فعالج جسيمات الأمور ولا تكن ♦ هببت الفؤاد همّة للوسائد⁽⁷¹⁾

ذكر المثقّب في حكمه الزمان وتغيّر طباع الفتى ، فهذا هو ذا وقد ولى ذلك الزمان الذي كان فيه فارساً مغواراً ، ولاهياً ضاحكاً ، والليالي والنهارات تغير طباع الفتى وتلوي عنقه عن غيه وضلاله ، ولا شيء نافعاً مع الشيب وصروف الزمان ، فلا الهارب مهما ابتعد ينجيه هربه وابتعاده منه ، ولا ينفع الحذر حذرُه ، قائلاً⁽⁷²⁾ :

فذاك عصرٌ قد خلا ، والفتى ♦ تلوي لياليه به والنهار
لا ينفع الهارب إيغاله ♦ ولا يُنجي ذا الحذار الحذار

دعا المثقّب إلى التفكير العميق المتزن في الأمور ، وهي تبدو متشابهة لناظرها دون تمنع وتمحيص ، والعبرة لا تتجلى إلا بالتدبر والتؤدة ، وهذه المعاني نجدها في غير موضع من شعره ، يقول⁽⁷³⁾ :

إن الأمور إذا استقبلتها ♦ وفي تدبرها التبيان والعبر
إذا ما تدبّرت الأمور تبيّنت ♦ عياناً صحيحات الأمور
ومما تقدم ذكره من مواضع الحكمة في شعر المثقّب يتضح أنها إرشادية أخبرت عن رجل مجرب في الحياة ، سبر أغوار الناس ، كيف لا وقد امتدت رحلاته من البادية إلى الحاضرة مما أكسبه تجارب جمّة.

ب/ العتاب واللد في الخصومة :

دعا شاعرنا المثقّب على قوم أضاعوا جياده وإبله في موضع يسمى (الوعواع) ، لائماً إياهم لما عطّلوا صنمهم ، وانهالوا عليه نقرأ بأدوات الحفر والنقر كالأثامج والوكوس ، أو لعله أراد أنهم انتقصوا مكانة صنمهم بالتخليط وشره بئس بخس ، قائلاً⁽⁷⁵⁾ :

لَحَى الرَّحْمَنُ أَقْوَاماً أَضَاعُوا ♦ عَلَى الْوَعَوَاعِ أَفْرَاسِي وَعَيْسِي
وَنَصَبُ الْحَيِّ قَدْ عَطَلْتُمُوهُ ♦ وَنَقَرُ الْأَثَامِجِ وَالْوَكُوسِ
أما اللد في الخصومة فيبدو واضحاً في قوله⁽⁷⁶⁾ :

لَعَمْرُكَ إِنِّي وَأَبَا رِيحٍ ♦ عَلَى طُولِ التَّهَاجُرِ مُنْذُ حِينَ
لِيُبَغِضُنِي وَأُبَغِضُهُ ، وَأَيْضاً ♦ يَرَانِي دُونَهُ وَأَرَاهُ دُونِي
فَلَوْ أَنَا عَلَى حَجَرٍ دُحْنَا ♦ جَرَى الدَّمْيَانِ بِالْخَبَرِ الْيَقِينِ

أخبر المثقّب بأنه يحمل البغض لأبي رياح ويبادله أبورياح أيضاً ، ويرى كل منهما نفسه فوق الآخر ، مبالغاً في أمر تلکم العداوة والبغضاء ، ولو ذبحا على حجر واحد ، لسال دمه في جهة ودم أبي رياح في جهة أخرى، بيد أن الشاعر لم يُبين سبب الفجور في تلکم الخصومة

والموضعان آنفا الذكر ليس فيهما هجاء صريح يتضمن السب والشتم، ولذا وضعتهما تحت عنوان العتاب واللد في الخصومة وهو الأليق بهما .

ولعل خلو شعر المثقّب من الهجاء يرجع إلى أنه كان يوطن نفسه، ولا يبادل السيئة بمثله. فقد أخبرنا في شعره غير مرة بأنه يتصامم عن الكلام السيئ وليس به صمم، ويدعو إلى تجنب الغيبة ، ويزن الأمور بميزان التؤدة والأناة. والأبيات الأخيرة (لعمرك ...) نسبت لأكثر من شاعر مما يجعل الشك يدنو إليها .

الخاتمة

- 1- المثقّب العبدى شاعر فحل قديم، جاهلي مقل، من أهل البحرين يعد من أكبر شعراء نُكْرَة ، سمي المثقّب لقوله : (... وثقّبين الوساوص للعيون) .
- 2- في بعض شعره غرابة ألفاظ ومتانة تراكيب وحيناً يميل شعره إلى السهولة. وصف عناصر السوء في مجتمعه ، ولاسيما المنافيين الحوّل القلب .
- 3- استجاد كثير من النقاد قصيدته النونية (أفاطم ...) وفي مقدمتهم أبو عمرو بن العلاء حيث قال : (لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلموه) .
- 4- حُقق ديوانه ثلاث مرات بدءاً من الشيخ محمد حسن آل ياسين، مروراً بحسن كامل الصيرفي وانتهاءً بحسن حمد .
- 5- وصف المثقّب الحيوان من ناقة وفرس وثور وحشي ، مجيداً في وصف الناقة ، كيف لا وقد كانت رفيقته في سفر طويل الأمد ، واصفاً إياها بإحساس بدوي قح في حركتها وسكونها، قاطعاً بها المهامة والقفار ، حتى جأرت بالشكوى غير مرة (أهذا دينه أبداً وديني) . ويؤخذ عليه عدم إشفاقه عليها رغم ما قدمته له من أياد بيضاء، ممطياً إياها في جده وهزله ، ثم وصف الفرس والثور الوحشي وصفاً مقتضباً، وقد جاء استطراداً ولم يعتد الشاعر عليه .
- 6- نأى غزل المثقّب عن الصفات الحسية إلاّ اليسير منها ، ذاكرراً الوصل والهجر ، ذارفاً دموعاً غزاراً على فراق الأحبة ، مسهباً في وصف الظعن بشيء من البراعة والإمتاع. وجاء بعض غزله في مفتتح قصائده تقليداً لما تواضع الشعراء عليه ، وهو حينئذ خالٍ من عاطفة حرّى وهوى جامع .
- 7- مدح شاعرنا المثقّب عمرو بن هند وأبا قابوس النعمان بن المنذر بكرم الأرومة، وإخضاع قبائل من العرب ، ذاكرراً سلطانهما

الباطش ، مخيراً ممدوحه عمرو بن هند بين الصداقة الحقة والعداوة الصريحة . ثم مدح خالد بن أنمار مطرباً كرمه وطيب معشره ونائله العُمر ، وجعله ماله وقاية لعرضه ، لما فك أسرا ابن أخت المثقب (شأس بن نهار) المعروف بالممزق العبدى . وهو مدح سهل الألفاظ سلسها ليس فيه ألفاظ حوشية متوعدة ، رغم أن المثقب جاهلي قديم .

8- صورة الفخر بالقبيلة عند المثقب مألوفة مكرورة عند جل شعراء عصره من نعت رجال القبيلة بالشجاعة وحسن الفعال ، بيد أن فخره بشيمه ودماثة خلّقه جيد للغاية من رعاية حقوق الجار ، وتحاشي الغيبة ، والحلم على الجهّال وهي معانٍ جدّ عظيمة يفتقر إليها الناس في كل زمان ومكان ، قميّة بالدرس والتطبيق .

9- خلا شعر المثقب من الهجاء ، ولعله كان يوطن نفسه ، ولا يبادل السيئة بمثلاً ، متصامماً عن الكلام السيئ وليس به صمم . ولكن في شعره شيئاً يسيراً من العتاب ، واللدد في الخصومة . ويبدو أن أبيات الخصومة في شعره تفتقر إلى دليل دامغ ، فقد نسبت إلى أكثر من شاعر ، وهي لا تتسق والسياق العام لشعر المثقب ، وقد أخبر شعره بأنه كان يزن الأمور بميزان التؤدة والأناة .

هوامش البحث

- 1- طبقات فحول الشعراء 271/1 .
- 2- انظر: المفضليات للمفضل الضبي ص149 .
- 3- انظر: الشعر والشعراء ص250 .
- 4- المفضليات ص149 .
- 5- طبقات فحول الشعراء 171/1 . الوصاوص : جمع وصواوص ، وهو ثقب في السترونحوه على قدر العين ينظر منه . يريد ستر الهودج .
- 6- تاريخ الأدب العربي ، لعمر فروخ 160/1 .
- 7- انظر : معجم ما استعجم ص81 ، وجاء فيه (ونزلت نُكْرَة الشِّفَار والظهران ، إلى الرمل وما بين هَجَر) .
- 8- انظر في أخبار حرب البسوس : الأغاني ، ط8 ، دار الثقافة ، بيروت عام 1990م ، 5/29 - 55 ، وأيام العرب في الجاهلية لجاد المولى وآخرين ص142 - 168 ، والكامل في التاريخ لابن الأثير 523/1 - 539 .
- 9- ديوان المثقّب العبدى ، تحقيق د. حسن حمد ص79 .
- 10- دراسات في الأدب العربي لجوستاف فون جرنباوم ص265 .
- 11- ديوان المثقّب ص10 - 11 .
- 12- تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ 160/1 .
- 13- ديوان المثقّب ص11 (بتصرف) .
- 14- نفسه ص73 .
- 15- نفسه ص67 .
- 16- تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ 161/1 - 162 .
- 17- دراسات في الأدب العربي لجوستاف جرنباوم ص265 .

-
- 18- ديوان المثقّب ص 46- 47 .
 - 19- انظر : طبقات فحول الشعراء 1/271- 274 .
 - 20- الشعر والشعراء ص 250 .
 - 21- انظر على سبيل المثال : الحيوان للجاحظ 1/278 ، 3/388 ،
، وخزانة البغدادى 2/138 ، 6/145 / 11/80- 85 ،
، وشعراء النصرانية قبل الإسلام للويس شيخو ص 400- 415 ،
، ولسان العرب (درأ) ، (ثقب) ، (جلسد) ، (صلد) ، (مسد) ،
وغيرها كثير .
 - 22- ديوان المثقّب ص 11 (بتصرف) .
 - 23- نفسه ص 6 .
 - 24- العمدة 2/294- 295 .
 - 25- فن الوصف وتطور في الشعر العربي لإيليا حاوي 1/37 .
 - 26- ديوان المثقّب العبدى ص 26- 28 .
 - 27- نفسه ص 28- 30 .
 - 28- نفسه ص 44- 46 .
 - 29- طبقات فحول الشعراء ص 273 .
 - 30- نفسه ص 274 .
 - 31- ديوان المثقّب ص 60 .
 - 32- نفسه ص 65- 66 .
 - 33- العمدة 2/296 .
 - 34- ديوان المثقّب ص 93 .
 - 35- نفسه ص 90 .
 - 36- نفسه ص 49 .
 - 37- نفسه ص 30- 31 .

-
- 38- نفسه ص31- 34 .
- 39- نفسه ص34 .
- 40- نفسه ص33 .
- 41- العمدة 116/2 .
- 42- أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، لبطرس البستاني ص65- 66 (بتصرف) .
- 43- ديوان المثقّب ص23- 25 .
- 44- نفسه ص42- 43 .
- 45- نفسه ص54- 55 .
- 46- المفضليات ص287 .
- 47- ديوان المثقّب ص55- 57 .
- 48- نفسه ص57- 59 .
- 49- نفسه ص36- 37 .
- 50- العمدة 121/2 - 122 .
- 51- أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ص48- 49 (بتصرف)
- 52- ديوان المثقّب ص37- 39 .
- 53- نفسه ص67 .
- 54- انظر: شرح المفضليات للتبريزي 1036/2 .
- 55- انظر : الموشح للمرزباني ص303 والخزانة للبغدادي 429/4 ، والمفضليات ص292 .
- 56- انظر : المفضليات ص209 ، 211 ، 296 .
- 57- تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ 161/1 - 162 .
- 58- ديوان المثقّب ص46- 48 .
- 59- نفسه ص69- 70 .

- 60- خالد: هو ابن أنمار بن الحرث ، أحد بني أنمار بن عمرو بن وداعة بن لُكَيْز . وراية المفضليات: بعدما حاقت به إحدى الظُّلم .
- 61- انظر: المفضليات ص293 وما بعدها .
- 62- العمدة 129/2 .
- 63- فن الفخر وتطوره في الأدب العربي لإيليا حاوي ص6- 7 (بتصرف).
- 64- العمدة 143/2 (بتصرف) .
- 65- ديوان المثقّب ص78- 80 .
- 66- نفسه ص88- 89 .
- 67- نفسه ص73- 74 .
- 68- سورة الحجرات آية 12.
- 69- نفسه ص72- 73 .
- 70- نفسه ص87 .
- 71- نفسه ص88 .
- 72- نفسه ص93 .
- 73- نفسه ص94، وجاء في شعراء النصرانية قبل الإسلام للويس شيخو ، ص415(ومن حكمه قوله بالاعتزاز بأشباه الأمور: إن الأمور...البيت) .
- 74- ديوان المثقّب ص94 .
- 75- نفسه ص95 ، وانظر معجم البلدان لياقوت الحموي (وعواع) ، وشعراء النصرانية قبل الإسلام ص415 .
- 76- ديوان المثقّب ص99 ، والأبيات في لسان العرب (دمي) من غير عزو. ونسبتها بعض المصادر إلى الفرزدق تارة وإلى الأخطل ، وعلي بن بدّال من بني سُلَيْم تارة أخرى.

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- (1) أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، بطرس البستاني، نشر دار مارون عبود، بيروت، عام 1979م .
- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، دار الثقافة - بيروت، ط8، عام 1990م.
- (2) أيام العرب في الجاهلية ، جاد المولى وآخرين، طبع عيسى البابي الحلبي، مصر، عام 1942م.
- (3) تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت (د.ت).
- (4) الحيوان، الجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هارون، نشر مصطفى البابي الحلبي - مصر ، ط2، (د.ت) .
- (5) خزانة الأدب، البغدادى، تحقيق عبدالسلام هارون، ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ، عام 1977م ، ومكتبة الخانجي- القاهرة ، (د.ت) .
- (6) دراسات في الأدب العربي، جوستاف فون جرنباوم، ترجمة د. إحسان عباس وآخرين، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت (د.ت) .
- (7) ديوان المثقب العبدى، تحقيق: د. حسن حمد، دار صادر - بيروت، ط1، عام 1996م.
- (8) شرح المفضليات، التبريزي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، (د.ت) .
- (9) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان ، ط2، عام 1985م.
- (10) شعراء النصرانية قبل الإسلام، لويس شيخو، طبع مطبعة الآباء

- اليسوعيين ، بيروت (د.ت).
- (11) طبقات فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، محمد بن سلام الجمحي ، شرح وتحقيق محمود محمد شاكر ، القاهرة - مطبعة المدني (د.ت).
- (12) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ابن رشيق القيرواني ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، طبع دار الجيل - بيروت ، ط4 ، عام 1972م.
- (13) فن الفخر وتطوره في الأدب العربي ، إيليا حاوي ، منشورات دار الشرق الجديد - بيروت ، ط1 ، عام 1960م.
- (14) فن الوصف وتطوره في الشعر العربي ، إيليا حاوي ، نشر دار الشرق الجديد - بيروت ، ط1 ، عام 1959م.
- (15) الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، دار صادر - بيروت ، عام 1982م.
- (16) لسان العرب ، ابن منظور ، طبع دار صادر - بيروت (د.ت) .
- (17) معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، طبع مطبعة السعادة - مصر ، ط1 ، عام 1906م.
- (18) معجم ما استعجم ، أبو عبيد البكري الأندلسي ، تحقيق مصطفى السقا ، عالم الكتب ، بيروت ، عام 1945م.
- (19) المفضليات ، المفضل الضبي ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، بيروت - لبنان ، ط6 ، (د.ت) .
- (20) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، طبع دار نهضة مصر ، عام 1965م.